

صفحات مشرقة  
من تراث  
المحضارة العربية  
الإسلامية

# الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية

الأستاذ: محمد محمد التهامي

شهد العالم الإسلامي أحداثاً مثيرة وعلى جانب كبير من الأهمية مع تباشير مطلع النصف الثاني من القرن السابع الهجري (١٣م)، حيث قامت دولة سلاطين المماليك على أنقاض الدولة الأيوبية في مصر، ومن ثم هيات لهم الظروف أن يسيطروا سيطرتهم على الشام والحجاز واليمن فيها بعد.



ويحمل بنا في البداية أن نعطي نبذة تاريخية عن دولة سلاطين المماليك التي شغلت حيزاً من التاريخ الإسلامي وتركت بصماتها واضحة جلية على مختلف بلدان العالم الإسلامي. وقد بدأ ظهور طبقة سلاطين المماليك في مصر منذ قيام الدولة الأيوبية على يد مؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م) حيث استكمل من المماليك، وبعد في ذلك أخوه العادل أبو بكر ومن جاء بعدهم من أبناء البيت الأيوبي.

وكان معظم هؤلاء المالك من الترك الذين يتسعون إلى شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وفارس والتركستان وبلاد ما وراء النهر<sup>(١)</sup>، إلى جانب المالك الجراكسة الذين يتسعون إلى قبائل الجركس التي استوطنت المنطقة الواقعة إلى الجنوب من خوارزم<sup>(٢)</sup>.

وينسب إلى الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦ - ٦٤٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٩ م) الإكثار من جلب المالك الترك إلى الديار المصرية، حيث تكونت منهم طبقة سلاطين المالك الذين قاموا على حكم مصر فيما بعد<sup>(٣)</sup>. فقد قام بجلب أعداد كبيرة منهم، تفوق ما جلبه أسلافه من سلاطين الأيوبيين<sup>(٤)</sup>، ولذا يعتبره بعض المؤرخين «أبو الترك بالديار المصرية»<sup>(٥)</sup>.

أما عن أسلوب التربية والتعليم والتدريب، فقد حظي المالك بالرعاية والاهتمام من جانب السلاطين لتربيتهم وتدريبهم في الطاق<sup>(٦)</sup> على أيدي المتخصصين في شتى المجالات، فهم المؤدب الذي يقوم بتعليمهم اللغة العربية والكتابة والقراءة، والفقهاء لتعليمهم القرآن الكريم، وتلقينهم مبادئ وأصول الشريعة الإسلامية، وحضهم على ملازمة الأذكار والصلوات والنسك بالفضائل الدينية، هذا فضلاً عن التخصصين في مجال التعليم والتدريب على مختلف أعمال القتال وأساليب الحرب وفنون الفروسية<sup>(٧)</sup>.

ونتيجة لما حظي به المالك من التعليم والتدريب على أعمال الفروسية في الطاق، صار لهم شأن كبير في مجال الحرب والقتال، وهي القاهرة العامة التي سمت بها دولتهم فيما بعد، حيث صارت كمؤسسة عسكرية ذات صبغة حرية، تصدت لأعمال الجهاد والدفاع عن الإسلام وحمايته من الأخطار الخارجية.

وكانت أولى حركات الجهاد عن الإسلام، والتي قام بها المالك، هي التصدي لهجوم التتار الذين قاموا باجتياح المشرق الإسلامي بقيادة هولاكو خان، بالرغم من أن دولة المالك كانت لاتزال تحبو منية لاتخاذ الخطوات الأولى لقيامها ونشأتها<sup>(٨)</sup>.

وعقب قيام المغول بالزحف على بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - والاستيلاء عليها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وولده<sup>(٩)</sup>، ومن ثم الاستيلاء على

مدن الشام التي سقطت في أيديهم مدينة بعد أخرى، ولم يبق أمامهم في الميدان سوى دولة المماليك. وأرسل المغول إليهم كتب التهديد والوعيد لدفعهم إلى الاستسلام<sup>(١١)</sup>، وليفت في عضدهم ويضعف من شأنهم<sup>(١٢)</sup>.

وبالرغم من قسوة الظروف التي أحاطت بالمماليك، لم يرضخوا للتهديد، وعقد السلطان سيف الدين قطز مجلساً للحرب، وتشاور مع أمراء المماليك، واتخذت كلمتهم على مواجهة التار مهما كانت النتائج، دفاعاً عن الإسلام وحماية للمسلمين من شرورهم، ويأمر قطز بقتل رسل هولاكو خان، وطيف برؤوسهم في الأسواق استنزاء وسخرية منه، وانتقاماً لما فعله بالمسلمين سواء في العراق أو الشام. واستعد المماليك لمواجهة التار ومبادرتهم بالقتال<sup>(١٣)</sup>.

وبين مشاعر التحدي لغطرسة التار، والتصدي لحجاتهم الغاشمة المدمرة على العالم الإسلامي، ارتفعت معنويات المماليك وزاد حماسهم، حباً ورجاً في الجهاد والزود عن الإسلام - وبدأت المعركة ودار القتال في عين جالوت<sup>(١٤)</sup>، في أيام مباركة من شهر رمضان (٢٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٦٠م) وتدور دائرة الغزوة على هولاكو خان وقواته من التار<sup>(١٥)</sup>.

وهنا، وعلى أرض المعركة تنضح إحدى المظاهر الرائعة لجهاد المماليك دفاعاً عن الإسلام، وبعد انتهاء المعركة بخر السلطان سيف الدين قطز ساجداً لله، شكراً على ما منحهم من النصر المبين ضد عدو غاشم للإسلام والمسلمين<sup>(١٦)</sup>.

وقد نتج عن الانتصار الرائع الذي حققه المماليك على التار، أن أحييت الأمل في نفوس المسلمين، وكسرت شوكة التار، وأدركوا بأن هناك زعامة قوية للمسلمين يمكنها التصدي لحمايتهم وصيانة مقدساتهم من العبث، وصار المماليك هم فرسان الحلبة بلا منازع، خاصة بعد أن أجبروا بقايا التار على الفرار من الشام<sup>(١٧)</sup>.

ولم يقتصر دور المماليك على التصدي لهجمات التار على العالم الإسلامي فقط، بل حرصوا على مواصلة أعمال الجهاد والذود عن الإسلام ضد القوى الصليبية التي عكرت صفو أمن

المسلمين وسلامتهم في المشرق الإسلامي، واستولت على الكثير من مدن الشام وبيت المقدس - أولى القبلتين - وبلغت بهم الجحشة حدا من الوقاحة بحيث هددت أمن وسلامة الأراضي الحجازية، مما يؤدي مشاعر المسلمين الروحية ومقدساتهم الدينية.

وقد حرص المالك على تقديم يد العون والمساعدة لحماية المسلمين واليسير عليهم لأداء مناسك الحج، خاصة بعد أن آلت إليهم زعامة القوى الإسلامية عقب القضاء على الخلافة العباسية في بغداد على يد التتار (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)<sup>(١١)</sup> وقيام المالك بإعادة إحيائها مرة أخرى في مصر سنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م)<sup>(١٢)</sup>، وعن هذا الطريق آل إليهم حكم البلاد نيابة عن الخليفة العباسي، واعتبر ذلك من أهم مراسم نقل الحكم والسلطة<sup>(١٣)</sup>. ومنذ ذلك التاريخ، انتقل إلى المالك دور الزعامة للعالم الإسلامي، مما جعلهم يقدمون المزيد من التسهيلات للحجاج، والقيام بالإصلاحات العديدة للأماكن المقدسة في الأراضي الحجازية، تيسيراً على المسلمين في أداء مناسكهم وقضاء فريضة الحج في يسر وطمأنينة.

وتجلى مظاهر اهتمام سلاطين المالك بأمور الحجاج في تنظيم قيام ركب الحج من مصر وفق مراسم خاصة، فضلاً عن القيام بعمل الإصلاحات وتقديم التسهيلات للحجاج على امتداد الطريق في الأراضي الحجازية من توفير الأمن والحماية لركب الحج، وحفر الآبار لتوفير المياه عصب الحياة، والاهتمام بالأسواق التي تمدهم بالمواد وما يحتاجون إليه، إلى جانب القيام بعمل الإصلاحات - إذا استدعى الأمر - بالحرم المكي أو المسجد النبوي، وتخصيص الأوقاف للإتفاق على القائمين بأمور الحرمين.

وكان للمالك أيضاً دور بارز في نشر وازدهار الثقافة الإسلامية بالأراضي الحجازية نتيجة لاهتمامهم بالعلماء والمتعلمين، وتخصيص أموال الأوقاف المختلفة للإنفاق عليهم؛ فضلاً عن توفير الكتب بوجه عام مما كان له أثره البارز في ازدهار الحياة الثقافية بالأراضي الحجازية، وتقصد من ذلك مكة المكرمة والمدينة المنورة على وجه الخصوص.

\* \* \*

أما عن الحج، فقد حرص سلاطين المالك على بذل غاية جهدهم في الاهتمام بتسهيل

تأدية مناسك الحج للمسلمين، واهتموا بتنظيم الاحتفالات المؤثرة التي تميز المشاعر، وتحرك نوازع الرغبات الروحية الكامنة تشوقاً لأداء فريضة الحج<sup>(٢٠)</sup>.

وأولى خطوات تنظيم قيام ركب الحجاج، تمثل في التداء بالحج ودوران العمل إيداناً بقرب خروج الحجاج، والتداء بالحج سنة للمسلمين مأثورة عن النبي ﷺ، حيث كان يتأدى بالمدينة المنورة بالحج في أول شهر ذي القعدة من كل عام، على اعتبار أن المسافة من المدينة المنورة إلى مكة المكرمة تستغرق عشرة أيام، فقدم التداء بثلاثة أمثاله، وكذلك كان الحال في تحديد الفترة الزمنية التي يستغرقها ركب الحج من مصر إلى الحجاز، والتي قدرت بأربعين يوماً، ولذا كان التداء بالحج يتم في أوائل النصف الثاني من شهر رجب، سواء في مصر أو دمشق، وقد حرص المماليك بهذه المناسبة على دوران العمل «الخصص لحمل كسوة الكعبة المشرفة» وسط احتفال كبير يقام لهذه المناسبة.

وكان السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أول من أدار العمل في مصر، واضعاً بذلك مراسم احتفال التداء بالحج ودوران العمل إيداناً بقيام قافلة الحج متوجهة للأراضي الحجازية<sup>(٢١)</sup>.

وقد جرت العادة أن يدور العمل مرتين في السنة وسط مظاهر الاحتفال والحفاوة، الأولى في النصف الثاني من شهر رجب عند بدء التداء بالحج، أما الثانية فتكون في النصف الثاني من شهر شوال عند بدء قيام ركب الحج متوجهاً إلى الحجاز<sup>(٢٢)</sup>.

ويعتبر يوم دوران العمل من الأيام المشهودة حيث يركب فيه أهم الشخصيات في المجتمع المملوكي، ومنهم القضاة الأربعة، ووكيل بيت المال والخشب وأعلام الفقهاء وأبناء الرؤساء، كما يقوم أصحاب الخواتيم بتزيينها على امتداد الطرق التي يمر منها الركب<sup>(٢٣)</sup> كما يسير أمام العمل، الأمير اللعين للإشراف على سفر ركب الحج إلى الحجاز في تلك السنة، وبصحبه مجموعة من الأعوان القاطنين على حراسة الركب وتأمين سلامة الحجاج<sup>(٢٤)</sup>.

وبعد أن يتم الركب دوراته بالقاهرة، يتجه إلى البركة (بركة الحبش) انتظاراً لتجمع

الحجاج، ومن ثم تبدأ القافلة في المسير إلى الأراضي الحجازية، وغالباً ما يتحرك ركب الحج على دفعتين، حيث يسير ركب الحمل ومعه كسوة الكعبة المشرفة، ثم يتبعه ركب الحجاج في اليوم التالي<sup>(٢٦)</sup>، وعلى كل منها أمير لقيادة الركب<sup>(٢٧)</sup>.

وتسير ركب الحجاج وتأمنه على هذه الصورة، كان يمثل إحدى مظاهر اهتمام المالكين بالمسلمين في طريقهم لتأدية مناسك الحج بالأراضي الحجازية، وانغذت الاحتياطات الواجبة لضمان سلامة الحجاج على طول الطريق إلى الحجاز، فبعد أن يأخذ ركب الحج أعباء الاستعداد للمسير، يلتف الفرسان حول القافلة وهم يحملون المشاعل، حيث اعتاد ركب الحج أن يرحل غالباً في النصف الأخير من الليل، كما يستحثون من يتخلف عن الركب، ويساعدون الضعيف العاجز<sup>(٢٨)</sup>.

كما يقوم الدليل بالمسير أمام القافلة ليرشدها إلى الطريق الصحيح. وهكذا تسير القافلة وفق نظام محكم دقيق، فلا يرحلون ولا يتزولون إلا بإذن أمير الركب عندما تدق الطبول لأبناء الحجاج بالتزول للراحة أو التحرك واستكمال المسير<sup>(٢٩)</sup>.

ونظراً لكثرة وضخامة أعداد الحجاج في ركب الحج - والتي بلغت في بعض السنوات ما يزيد على المائتي ألف في ركب مصر وحده - فقد وضعت كل مجموعة داخل القافلة لنفسها علامة يتعارفون عليها وتمييزهم عن المجموعات الأخرى، حتى لا يضل رفاقهم<sup>(٣٠)</sup> تماماً كما نشاهد ذلك اليوم بين مجموعات الحجاج التي تنتمي إلى مختلف البلدان الإسلامية، حيث تقوم كل مجموعة بوضع علامة أو شارة يتعارفون عليها وحتى لا يتغيب الحجاج عن رفاقهم.

ولم يكن الأمر مقصوراً على الاهتمام بركب الحج وتأمنه فقط، بل زودت القافلة بكل احتياجات المعيشة من مأكّل ومشرب وملبس<sup>(٣١)</sup>، فضلاً عن توفير أبواب الحرف والصنائع المختلفة التي يحتاج إليها الحجاج في الحل والترحال، وكذلك مجموعة من الأطباء والمجبرين والأدلاء والأئمة والمؤذنين ومغسلي الموتى وغيرهم، علاوة على ما يحتاجون إليه من الأدوية والعقاقير اللازمة للعلاج<sup>(٣٢)</sup> تماماً كما يحدث في وقتنا الحاضر من تواجد البعثات الطبية في موسم الحج لتقديم العلاج والرعاية الطبية للحجاج.

ومن وصف ركب الحاج السلطاني، يمكننا التعرف على مدى الاستعدادات التي كانت تتخذ للتيسير على الحجاج، فعندما شرع السلطان الناصر محمد بن قلاوون في الحج عام ٧١٩ هـ (١٣٢٠ م) تم تجهيز الركب بكل ما يحتاج إليه طوال فترة الحج، حيث جمع سائر أصحاب الحرف المختلفة، كما رتب الأفران والحيازير لعمل ما يحتاج إليه من خبز، وجهاز الدقيق والروايا والأشربة، بالإضافة إلى غصصانة جمل تحمل الحلوى والفواكه، ومائة ومائتين جملاً تحمل الحب رمان واللوز، ومن الطيور ألف دجاجة ومن الأوز ثلاثة آلاف، فضلاً عن تجهيز أربع سفن في البحر الأحمر، تحمل مائة وثلاثين ألف أردب من الشعير لتوفير احتياجات دواب القافلة من العليق، والتجهت سفينتان إلى ينبع والأعريان إلى جدة<sup>(٣٣)</sup>، مما يجعلنا نتعرف على مدى الاستعدادات والإمدادات التي كانت تبذل من جانب المالك لتجهيز ركب الحج في كل عام.

\* \* \*

أما عن الماء - عصب الحياة - فقد حرص المالك على توفيرها طوال الطريق إلى الحجاز، والعمل على حفر الآبار وصيانتها وجعلها صالحة لخدمة المسلمين، خاصة تلك التي كانت تصادف ركب الحج في أماكن ومحطات استراحة الحجاج للتزود منها بما يلزمهم من الماء العذب.

وكان أول ما يقابله ركب الحج من تلك الآبار في عقبة آيلة بعد مسيرة ستة أيام من القاهرة، حيث يستريح الركب بها يومين أو ثلاثة. والموقع التالي لخط الرحال وأخذ قسط من الراحة في **عيون القصب** بعد مسيرة خمسة أيام حيث يتوافر بها ماء جارٍ عذب، وبعد مسيرة خمسة أيام أخرى يتوقف الركب في **الوجه** للتزود منها بمائها العذب الطيب، كما يتوقف ركب الحج للتزود بالماء في **المحوراء** بعد مسيرة ثلاثة أيام (وفيها يتلقى أهل ينبع ركب الحاج بالفرس)، وتستمر القافلة في السير والتزود بالماء في **المغيرة** على مسافة يومين، ثم ينبع على مسافة يومين، ومنها إلى **الدهناء** مسيرة نصف يوم وبها ماء طيب، ثم تصل القافلة إلى **بئر** بعد مسيرة يومين وبها ماء عذب، ومنها إلى **وايع** مسيرة ثلاثة أيام ليبدأ الحجاج في الإحرام<sup>(٣٣)</sup>. وحظيت الآبار

الموجودة في هذه الأماكن بالإهتمام والصيانة من جانب سلاطين المالك، حرصاً منهم على توفير المياه لركب الحج.

كما حرص المالك على إصلاح آبار المياه الواقعة بين القاهرة ومكة المكرمة، حيث أرسلوا إلى الحجاز عام ٨٣٤هـ، الأمير شاهين الطويل، ومعه كثير من المشاة والحجاريين والأزواد والأمتعة لإصلاح المياه والآبار، وحفر آبار جديدة في الأماكن العطشة، وقاموا بحفر بئرين أحدهما في وادع والآخر في قيقاب - كما استجد القاضي زين الدين عبد الباسط في طريق الحجاز بئراً أخرى عند عين القصب، مما عاد على الحجاج بالنفع الكثير نتيجة لحفر تلك الآبار<sup>(٣١)</sup>.

وتيسيراً على الحجاج في طريقهم إلى الحجاز، لم يدخر المالك وسعاً في القيام بالإصلاحات التي تسهل على جموع المسلمين تأدية الفريضة في يسر وأمان، من ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧٣٢هـ من تكليف الأمير أئمشي بالتوجه إلى عقبة آيلة - ملتقى حجاج الشام ومصر والسودان وبلاد المغرب والأندلس - وبصحبته مائة رجل من الحجاريين لتوسيعها وإزالة وعرها وتسهيل صعودها على الحجاج<sup>(٣٢)</sup>.

وحرص المالك على الإهتمام بالأسواق على طول الطريق من مصر إلى الحجاز، وكانت هذه الأسواق تعتبر بمثابة أماكن لتجمع واستراحة الحجاج، وفي نفس الوقت إمدادهم بما يلزمهم من المؤن وال زاد، وفي ذلك ما يحقق النفع والفائدة للمسلمين. وكان أول هذه الأسواق يقع ببركة الحبش - بالقرب من القاهرة - حيث يتجمع هناك الحجاج، ويستكملون من أسواقها جهازهم وما يلزمهم، كما وجد في عقبة آيلة سوق كبير عامر بالطعام وما يلزم الحجاج في سفرهم، خاصة وأن ركب الحج الشامي ينضم إلى ركب الحج المصري في هذه المدينة، ومن لم كان على التجار الذهاب مبكراً إليها وبصحبته مختلف أنواع التجارات اللازمة للحجاج. هذا فضلاً عن أسواق المحرواء، وبلو، ورايع، والأسواق الرئيسية التي كانت توجد في مكة والمدينة وتزداد ازدهاراً في موسم الحج<sup>(٣٣)</sup>.

وزيادة في التيسير على الحجاج بالأراضي الحجازية، يصدر السلطان الأشرف برسباي



الدقافي مرسوماً سنة ٨٢٩هـ، قرئ في مكة المكرمة، بمنع الباعة من مضايقة الحجاج ببسط بضائعهم أيام موسم الحج في المسجد الحرام. وكذلك منع الناس من ضرب الخيام بالمسجد، على مصاطبه أو أمامها، وذلك حرصاً على راحة وسلامة حجاج بيت الله الحرام (٢٧).

\* \* \*

أما عن بيت الله الحرام بمكة المكرمة - مقصد الحجاج وقلة المسلمين - فقد حظي بجانب كبير من اهتمام سلاطين المماليك، حيث بذلوا له الرعاية التامة وحرصوا أشد الحرص على صيانه كلما أصابه ضرر من الحريق أو السيول (٢٨).

واعتبر سلاطين المماليك ما يقومون به من إصلاحات لبيت الله الحرام واجباً مقدساً، ولذا بذلوا ما في وسعهم لراحة الحجاج والاهتمام بالكعبة المشرفة، من ذلك ما قام به السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٣هـ. بعمل باب من خشب السنت الأحمر، وصفحه بفضة زنتها خمسة وثلاثون ألف وثلثائة درهم، ووضع على باب الكعبة (٢٩).

وحرص المماليك على إرسال الكسوة إلى الكعبة المشرفة في كل عام صحية ركب الحج المصري، وقد استمر ذلك طوال عهد المماليك (٣٠). وكانت هذه الكسوة تنسج بالقاهرة (بمشهد الحسين) من الحرير الأسود، وتطرز بكتاتبة بيضاء في نفس النسيج، ومنذ أواخر القرن التاسع الهجري (١٤م) على عهد السلطان الظاهر برفوق، استقرت هذه الكتابة صفراء مشعرة بالذهب، وخصصت دار الكسوة لصنعها، كما خصصت أموال الأوقاف للإتفاق عليها (٣١).

ومن مظاهر اهتمام سلاطين المماليك بالكعبة المشرفة، ما نشاهده في أحداث سنة ٦٦٧هـ. عندما قام السلطان الظاهر بيبرس بالحج، حيث فتحت له الكعبة وقام بفسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة وتناول أيدي الناس ليدخلوها وهو بينهم، وقد تكرر ذلك عدة مرات طوال العصر المملوكي (٣٢).

كما حظيت المدينة المنورة ومسجد رسول الله ﷺ بجانب كبير من اهتمام سلاطين المماليك، فعندما احترق المسجد النبوي في ليلة الجمعة من شهر رمضان سنة ٦٥٤هـ - من سرجة

القيم - وذهبت سائر مقوفه وبعض عمدته، واحترق سقف الحجرة الشريفة<sup>(١٢)</sup>، حرص السلطان الظاهر بيبرس على عمارة مسجد الرسول ﷺ سنة ٦٦٣هـ<sup>(١٣)</sup>، وأرسل لذلك الغرض الأمير جمال الدين - نائب دار العدل - وسير معه مبلغ عشرة آلاف درهم لعمارة مسجد رسول الله ﷺ، كما سيرت الغلال والجراريات للصناع. وفرغ من عمل الإصلاحات اللازمة في أربع سنوات<sup>(١٤)</sup>.

أما في سنة ٦٨٦هـ فقد هطل مطر شديد (في ليلة الرابع من شهر المحرم)؛ فوكت<sup>(١٥)</sup> سقوف المسجد النبوي والحجرة، وغرقت عدة من المساكن والتنازل، وأتلفت السيول الكثير من التخليل والمزارع، وسارع السلطان سيف الدين قلاوون لنجدة أهل المدينة المنورة، وقام بعمل الإصلاحات اللازمة للمسجد النبوي الشريف<sup>(١٦)</sup>.

\* \* \*

ولم يكن اهتمام سلاطين المالك بالأراضي الحجازية مقصوراً فقط على القيام بالإصلاحات اللازمة لتأمين الحج وراحة المسلمين، بل شمل أيضاً الاتفاق بسخاء على المهاجرين بمكة المكرمة والمدينة المنورة، فعندما قام السلطان الظاهر بيبرس بالحج سنة ٦٦٧هـ، زار المدينة المنورة وأحسن إلى أهلها ونظر في أحوالها، كما تصدق على المهاجرين بمكة المكرمة<sup>(١٧)</sup>.

وعندما قام الأمير سلاّر (كافل السلطان الناصر محمد بن قلاوون) بالحج سنة ٧٠٣هـ، فعل في الحجاز أفعالاً جميلة، منها: قيامه بكتابة أسماء المهاجرين بمكة المكرمة، وأوفى عنهم جميع ما كان عليهم من الديون، وأعطى لكل منهم بعد وفاء دينه مائة سنة، وعندما وصلت السفن إلى جدة حاملة الغلال والمؤن قام بتفريق ما فيها على سائر أهل مكة، وكتب أسماء سائر الفقراء وجميع الأشراف وحمل إليهم الدنانير والدراهم والغلة بقدر كفاية كل منهم لمدة سنة، فلم تبق بمكة المكرمة امرأة ولا رجل، ولا صغير أو كبير إلا وعمه ذلك، وفرق فيهم الذهب والفضة والغلال والسكر والخلوى، كما بعث إلى جدة من يقوم بنفس العمل مع أهلها من الاتفاق والتصدق، وحمل ما بقي إلى المدينة النبوية حيث عم أهلها بالعطايا مما جعل الناس بالحرمين يرددون «يا سلاّر!! كفالك الله شر النار» وذلك لكثرة ما فعله من الخير بالأراضي الحجازية<sup>(١٨)</sup>.

وكذلك ما قام به الأمير بُشْتَاك عندما ذهب إلى الحج سنة ٧٣٩ هـ حيث فرق الأموال على المسلمين المهاجرين بمكة المكرمة والأشراف وغيرهم من أهل مكة، ولم يبق أحد بمكة حتى أُسْدي إليه معروفاً، وكان جملة ما فرق من الأموال ثلاثين ألف دينار وأربعمائة ألف درهم؛ سوى الغلال التي وصلت إليه في المراكب. وعندما توجه إلى المدينة المنورة بعد قضاء نسكه؛ فعل بها خيراً كثيراً<sup>(١)</sup>.

\* \* \*

كما حظيت الحياة الثقافية بالحجاز باهتمام المالِك حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية بعلومها المختلفة بالأراضي الحجازية، خصوصاً في مكة المكرمة والمدينة المنورة نتيجة لما قام به المالِك من الاهتمام بالعلماء وتشجيعهم، وتخصيص الأوقاف وما يتحصل منها للإتفاق على القائمين بأمر الثقافة الإسلامية والعلوم الدينية؛ وبصفة خاصة القرآن الكريم، كتابة وتلاوة وقراءة وحفظاً؛ فضلاً عن التشجيع الدائب للعلماء مما ساعد على ازدهار العلوم الدينية بالأراضي الحجازية، وصارت مكة المكرمة والمدينة المنورة من أهم المراكز لنشر الثقافة الإسلامية؛ وتزخر كتب الرحالة بأسماء العلماء الذين قاموا على بث العلوم الدينية من الأراضي الحجازية<sup>(٢)</sup>.

\* \* \*

هذه نبذة موجزة عن مظاهر الإصلاحات المملوكية في الأراضي الحجازية، والتي لم تكن مقصورة على أوجه البر والإصلاح فقط، بل شملت عدة أمور وتضمنت عدة جوانب سواء المادية أو الروحية أو الفكرية. وربما يعد العصر المملوكي من أزهى العصور التي تركت آثارها واضحة على الأراضي الحجازية بخاصة، والعالم الإسلامي بعامه.

\* \* \*

#### الهوامش:

(١) ابن خلدون: البر، ج ٥، ص ٣٧١ - ٣٧٢، على إراهم حسن: تاريخ المالِك، ص ٢٩.

(٢) القلقشندي: صبح الأُمش، ج ٤، ص ١٥٠، ١١١، ١٥٣.

(٣) ابن وصيف شاه: جناب الأمر، مخطوط، ورقة ٥٩ ب.

- (٤) الصني: السيف الهند، ص ٢٠٢. ابن أبي السروج: عيون الأخبار، مخطوط، ج ٢. ورقة ٩٤ب.
- (٥) التقليدي: دول الإسلام، مخطوط، ج ١. ورقة ١٤. ابن تقي بدي: السجود الزاهرة، ج ٦. ص ٣١٩.
- (٦) يشبه الطاق في تنظيمه المدارس والكتليات العسكرية في الوقت الحاضر.
- (٧) ابن خلدون: المعر، ج ٥. ص ٣٧٠. ماجد: طوماني، ص ٢٠ - ٢١. وانظر أيضاً: تدم: الفن الحربي السلوكي، ص ٣١.
- (٨) ابن خلدون: التعريف بابن خلدون، ص ٣٨١ - ٣٨٢. ابن العباد: شذرات، ج ٥. ص ٢٠٩. العربي: القول، ص (ب) من المقدمة.
- (٩) أبو شامة: التلبي على الروضتين، ص ١٩٨ - ١٩٩. ابن العباد: شذرات، ج ٥. ص ٢٧٠ - ٢٧١.
- (١٠) ابن خلدون: المعر، ج ٥. ص ٥١٣ - ٥١٤. أبو شامة: نفس المصدر السابق، ص ٢٠٣ - ٢٠٤. ابن العباد: شذرات، ج ٥. ص ٢٧٢.
- (١١) ابن ياقوت: فتح النصر، مخطوط، ورقة ٩٤. ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣. ص ٢١٨ - ٢١٩.
- (١٢) الفيضاني: جامع التواريخ، ج ١. ص ٣١٠ - ٣١٢.
- (١٣) المقرئ: السلوك، ج ١. ص ٤٢٩ - ٤٣٠.
- (١٤) ابن ياقوت: المصدر السابق، ورقة ٩٤. ٩٥. عاشر: الحركة الصليبية، ج ٢. ص ١١٢٠ - ١١٢٥.
- (١٥) الويري: نهاية الأرب، ج ٢٨ مخطوط، ورقة ٣٤. ابن أبي السروج: عيون الأخبار، مخطوط، ج ٢. ورقة ١٩٣ - ١٩٥.
- (١٦) أبو شامة: التلبي على الروضتين، ص ٢٠٧. ابن العباد: شذرات، ج ٥. ص ٢٩٣.
- (١٧) ابن العباد: شذرات، ج ٥. ص ٢٧٠ - ٢٧٢.
- (١٨) الذهبي: دول الإسلام، ج ٢. ص ١٢٥.
- (١٩) ابن خلدون: المعر، ج ٥. ص ٥٤٢. السيوطي: حسن الحاضرة، ج ٢. ص ٢٥٢ - ٢٥٣. أبو شامة: التلبي على الروضتين، ص ٢٠٣ - ٢٠٧.
- (٢٠) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣. ص ٢٧٥ - ٢٧٦.
- (٢١) المقرئ: الذهب للسوك، ص ١١.
- (٢٢) ابن الصبلي: نزهة القوس، ج ٣. ص ٧٣. ١٩٤.
- (٢٣) القلقشندي: منبج الأعشى، ج ٤. ص ٥٧.
- (٢٤) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١. ص ٦٢.
- (٢٥) السخاوي: الكبر السوك في ذيل السلوك، ص ٣٥٣.
- (٢٦) ابن الصبلي: نزهة القوس، ج ٣. ص ٢٨. ٦٦١.
- (٢٧) المقرئ: الرحلة، ص ١٥٥ - ١٥٦.
- (٢٨) السيوطي: حسن الحاضرة، ج ٢. ص ٣١٠.
- (٢٩) المقرئ: الرحلة، ص ١٥٦.
- (٣٠) المقرئ: الذهب للسوك، ص ١٠٠ - ١٠٢.
- (٣١) السيوطي: حسن الحاضرة، ج ٢. ص ٣١٠.
- (٣٢) المقرئ: الذهب للسوك، ص ١٠١ - ١٠٢.

- (٣٣) العيسري: الرحلة، ص ١٥٧ - ١٦٥.
- (٣٤) ابن بطوطة: الرحلة، ج ١، ص ٣٢.
- (٣٥) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٣٥٣.
- (٣٦) العيسري: الرحلة، ص ١٥٧ - ١٦٧.
- (٣٧) المقرئ: السلوك، ج ٤، ص ٧٥٤.
- (٣٨) ابن العلاء: شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٣.
- (٣٩) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٣٦٢ - ٣٦٣.
- (٤٠) الأزرقي: أخبار مكة، ج ١ ص ٣٧ - ٣٩، ٢٥٥ - ٢٥٨، ٣٥٥ - ٣٧٢.
- (٤١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٧.
- (٤٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٥، المقرئ: السلوك ج ١، ص ٥٨١.
- (٤٣) المقرئ: السلوك، ج ١ ص ٣٩٩.
- (٤٤) ابن العلاء: شذرات، ج ٥، ص ٣١٢.
- (٤٥) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٥٤٤.
- (٤٦) أي قطر ماء القطر من سلفه (محيط المحيط).
- (٤٧) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٨٣٨.
- (٤٨) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٥٥.
- (٤٩) المقرئ: السلوك، ج ٢، ص ٥ - ٢.
- (٥٠) المقرئ: نفس المصدر السابق، ص ١٧٢.
- (٥١) ابن عروبة: السند الصحيح، ص ٢٥١.



### ثبت بأهم المصادر والمراجع

- ١ - الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبدالله): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، جزءان، ط ٣، بيروت ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.
- ٢ - ابن جبار (محمد بن محمد التومني): فتح النصر في تاريخ ملوك مصر، ٣ أجزاء، مخطوط رقم ٢٣٩٩ تاريخ، دار الكتب بمصر.
- ٣ - ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد): رحلة ابن بطوطة، بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م.
- ٤ - ابن نفعي يردى (جمال الدين أبو الحسن): النجوم الزاهرة، ١٧ جزء، القاهرة ١٩٦٣م.
- ٥ - ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن): العبر وديوان المبتدأ والخير، ٨ أجزاء، بيروت سنة ١٩٧١م.
- ٦ - الذهبي (أبو عبدالله محمد): تاريخ الإسلام، ٣ أجزاء، القاهرة ١٩٦٧م.

- ٧ - السخاوي (محمد بن عبد الرحمن): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ جزء.  
٨ - ابن أبي السرور (محمد بن محمد): عيون الأخبار وثرثرة الأبيصار، مخطوط ٧٢٩١ ج دار الكتب المصرية.

- ٩ - السيد البار العريني (دكتور): القول، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١ م.  
١٠ - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): حسن الخاطرة في تاريخ مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٦٧ م.  
١١ - أبو شامة (أبو محمد عبد الرحمن): الروضتين في أخبار الدولتين، : جزءان، طبع بيروت.  
١٢ - ابن الصبلي (علي بن داود): زهرة القوس والأبدان، القاهرة ١٩٧٠ م.  
١٣ - العبدري (أبو عبدالله محمد): الرحلة المغربية، الرباط ١٩٦٨.  
١٤ - عبد المنعم ماجد (دكتور): طوماني، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨ م.  
١٥ - علي إبراهيم حسن (دكتور): تاريخ الممالك البحرية، النهضة المصرية ١٩٤٤ م.  
١٦ - العيني (أبو محمد محمود بن موسى): السيف المهد في سيرة الملك المنصور، القاهرة ١٩٦٧ م.  
١٧ - ابن العاد (أبي الفلاح عبد الحفي): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ١٠ أجزاء.  
١٨ - القلقشندي (أبو العباس أحمد): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ٥ أجزاء القاهرة سنة ١٩٦٣ م.  
١٩ - ابن كثير (أبو الفراء اسماعيل): البداية والنهاية، ٤ أجزاء، بيروت ١٩٧٧ م.  
٢٠ - المقرئ (أبي العباس أحمد): السلوك لمعرفة دول الملوك، ١٢ جزء، دار الكتب ١٩٧٣ م.  
٢١ - المقرئ (أبي العباس أحمد): الذهب السيوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، القاهرة سنة ١٩٥٥ م.

- ٢٢ - المقدسي (أبو حامد محمد): دول الإسلام الشريفة البهية، مخطوط برقم / ٢٣٢٤ محافظة الاسكندرية.

- ٢٣ - ابن مرقوق (محمد بن أحمد): المستد الصحيح الحسن، نشر الجزائر ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م.  
٢٤ - محمود فهم تديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي، دار المعارف بمصر سنة ١٩٨٤ م.  
٢٥ - التويري (أحمد بن عبد الوهاب): نهاية الأرب في فنون الأدب، ج ٢٨، مخطوط برقم ٥٥٥ معارف عامة - دار الكتب المصرية.

- ٢٦ - الميمني (وشيد الدين فضل الله): جامع التواريخ، نشر وزارة الثقافة بمصر (بدون تاريخ).  
٢٧ - ابن وصيف شاه (إبراهيم): جواهر البحور وعباب الأمور، مخطوط برقم ٤٠٢٤ تاريخ - محافظة الاسكندرية.